الطبقات النصية

في "مدينة براقش " لأحمد المديني

سعيد يقطين

"وأنت لماذا تريد أن تكتب عن هذا الوقت، والناس كلها مرضت بالنسيان"" الرواية ص 122

1- تقديم

1.1 يتواصل الإنتاج الروائي والقصصي عند أحمد المديني ويغتني باطراد بنصوص جديدة تصب مجتمعة في مجرى سيرورته الإبداعية التي يسهم كل نص في إغنائها وتعميقها. ساهم المديني مع محمد عز الدين التازي والميلودي شغموم في انتهاج أسلوب سردي متميز قوامه الخروج على المعتاد الروائي منذ أواسط السبعينات، وهذا الأسلوب هو ما صار يدرج في الكتابات النقدية تحت اسم "التجريب". غير أن رواية «مدينة براقش (1)» لأحمد المديني تأتي محملة بنفحة خاصة في سياق تجربة الروائي، فهي من جهة امتداد لتجربته الروائية، وتنويع من جهة ثانية، وهي أخيرا تطوير لها.

2.1 هذه الملامح الثلاثة (الامتداد-التنويع-التطوير) تبين لنا بجلاء أننا أمام بداية تجربة جديدة في سيرورة الروائي. لكن هذه التجربة لم تقطع مع السابق. إنها تظل تمتح من العديد من السمات التي طبعت مختلف نصوصه، ما كتب منها، وما لم يكتب، وهذا ما دفعنا إلى اعتبار كل نص للمديني يظل ينهل من رصيده الروائي، غير أن هذا الرصيد يتطور باستمرار، و"مدينة براقش" تأتي في رأيي لتكون بداية تحول في هذه السيرورة.

3.1 يبدو لنا ذلك بجلاء في كون تجربة المديني الروائية على وجه الإجمال يحكمها هذا المبدأ الذي يمكن صياغته بلسان الحال الذي يقول : " أريد أن أحكي عن الواقع، لكني لا أريد كتابة رواية واقعية". يتجلى لنا هذا المبدأ بصورة عامة في كل رواياته منذ "زمن بين الولادة والحلم" (1976)، ونجده واضحا في هيمنة "الواقعي" في أعماله وهو يتجسد من خلال حضور بنيات تتصل بالسياسي والإيديولوجي من جهة، ومن خلال السؤال الدائم عن معنى الواقعية، وتمرده المتواصل على "القصة" أو الحكاية ذات

البداية والنهاية. ولذلك يظل الخطاب الروائي عند المديني متحللا من قواعد السرد الروائي بمواصفاته التي تحددها المادة الحكائية، ويظل الخطاب ينسج عوالم حكائية غير قابلة للحكي لأنه وهو يفككها يفكر فيها، ويسعى من خلال هذه العملية إلى تقديم صورته عن الواقع الذي يحاول الإمساك به أو تشكيله بصيغ وأشكال خطابية متعددة، ولهذا يجد القارئ المتعجل صعوبة في قراءة رواياته لأنها لا تتأسس على مادة حكائية قابلة لأن تروى.

4.1 تأتي خصوصية "مدينة براقش" في كونها وليدة هذا المبدأ العام الذي يحكم تجربة المديني، كما أتصور، لكنها تنحرف عنه قليلا بسعيها إلى تجسيد مواد حكائية وخرقها في الآن نفسه. إن الروائي يلجأ إلى "الحكي" في هذه الرواية، لكن الحكي يستدعي مادة حكائية أو قصة قابلة لأن تروى. لكن الروائي في العمق ضد الحكي. تحل المفارقة المركزية التي جعلناها السمة الأساسية لتجربته بالمبدأ نفسه : "أنا أروي، ولكني لا أروي" انطلاقا من محاولة تشييد عالم حكائي، ولكن من خلال تقديمه، أو تخطيبه بطريقة لا حكائية، وإذا كان التفكيك وتقطيع السرد، واتباع الأسلوب الميتاسردي عنوان النصوص الروائية السابقة، فإن اللجوء إلى توظيف الطبقات النصية المختلفة والمؤتلفة في آن هو ما يطبع هذه الرواية، ويجعلها في الوقت نفسه سليلة التجربة وبداية لتطويرها وتحويلها. وستضطلع هذه القراءة السردية بالوقوف على ملامح هذه التحولات، وإبرازها عبر تحليل طبقات النص، والتساؤل عن أبعادها الشكلية والدلالية..

.2 العنوان : أو النبش في الذاكرة

2.1 مدينة براقش" هي مدينة الدار البيضاء في رواية أحمد المديني. لكن أن يرمز إليها بـــ "براقش" ولا يحافظ على اسمها كما هو في الواقع أوالخرائط كما فعل مثلا محمد صوف في روايته التي أسماها "كازابلانكا" (2)، فإن هذا الأمر لا يخلو من دلالة بعيدة في الربط بين ما ترمز إليه الذاكرة الثقافية العربية والرؤية التي يحملها لهذه المدينة حين يوازي هويتها بما تزخر به "براقش" من دلالات. نجد ذلك جليا في المناص الخارجي الذي صدر به روايته مقتطفا شذرات من كتب اللغة (اللسان -الجمهرة-) مستخلصا من مادة ""براقش" ما يفيد الفرار من جهة، ونقش الثياب أو التزيين من جهة ثانية، كما أنها تدل على التفرقة والجدب والخلاء ثالثا. أما الأخبار المتصلة بها والتي صارت مثلا فترتبط بـــ "الجناية"" غير المتعمدة، سواء كان القائم بها كلبة أو امرأة.

إن كل هذه الدلالات التي تزخر بها المادة تتصل بصورة أو بأخرى بالدار البيضاء، فهي المدينة المجدبة الخلاء، وهي المدينة التي تجني على ساكنيها، وفي هذه الجناية تصبح جزءا من كل، حيث تصير المدينة هي البلد كله. غير أن هذه الدلالات المباشرة التي يوحي بها العنوان لا يمكنها أن تنسينا ما هو أبعد من ذلك في تشكيل عوالم الرواية، وما تزخر به من إيحاءات ودلالات : فالمدينة (أي مدينة) فضاء تتجمع فيه شخصيات، وتتقرر مصائر. تقع فيها أحداث شتى، وتمر بها شخصيات عديدة، وهي عوالم قابلة لأن تكون عرضة للذكرى والنسيان، غير أن الروائي وهو يسعى لتجسيد المدينة من خلال السرد أو التخييل قد يوجه منظوراته نحو أحداث بعينها، ويعمد إلى إغفال سواها، وحين يقع ذلك في الزمان، وتنأى المسافات الزمنية عما جرى في لحظات تشكل الشخصيات والأحداث يعمل الروائي على ترهين أحداث خاصة من منظوره الخاص، وكل ذلك يتحقق وفق أشكال ودلالات محددة ينشدها الكاتب من خلال إنتاجه الروائى.

تظهر لنا "براقش" (مدينة الدار البيضاء) وفق التصور أعلاه، وكأنها بلا ذاكرة ولا تاريخ، ويضطلع الكاتب بالعمل على التقاط تاريخ هذه المدينة من مصادر مختلفة، ويلجأ إلى الحلاق الذي كان يعرف والده، طالبا منه أن يحكي له عما وقع في 61 أو63، لكن الحلاق يجابهه بالقول : "وأنت لماذا تريد أن تكتب عن هذا الوقت، والناس كلها مرضت بالنسيان".(ص121) بل إنه ينفر من الحديث عن هذه الحقبة، ويخاطبه : "اكتب لنا ياولدي، مثلا، حكايات عن الجرائم وقطاع الطرق هذه الأيام، عن البلد العامرة بالسعيان هذه الأيام، أو عن الدار البيضاء كيف أصبحت مزبلة وحظيرة للدجاج، وعندك الغرام والفراق..." (ص122) ويعبر لنا الحلاق عن أمنيته، "ولو رزقني الله هذه الموهبة (الكتابة) لما ضيعت وقتي في نبش قبور الغابرين، وتتبع سير التعساء والضالين" (ص 122).

يعكس لنا موقف الحلاق والراوي موقفين مختلفين لعملية الكتابة. فموقف الحلاق يوحي بجلاء إلى التصور الواقعي للحكي وللكتابة عن اللحظة المعيشة (الحكي عن الجرائم وقطاع الطرق هذه الأيام...). أما تصور الروائي فمختلف تماما، وتتبين منه رغبة الراوي/الروائي في نبش قبور، وتتبع "سير تعساء وضالين". ويبدو لنا هذا الموقف واضحا أيضا في نهاية الرواية حيث يلجأ الراوي بعد زوال الأسباب الموصلة إلى تتمة سرد الوقائع المتصلة بحوادث اضطرابات مارس 65 في الدار البيضاء إلى ضريح سيدي بليوط ليبحث عن فاطمة لتمده بأسرار أخرى : "فكر السارد : إذا كانت أغلب الأخبار التي سردت والرجال الذين عرضت أحوالهم تتقطع مصائرهم وتنطلق حكاياتهم أو تتصل من ضريح الولي الصالح، فإن نهاياتها والإضاءات الأخيرة عنها لا بد أن تكون موجودة ولا شك هناك

بطريقة أخرى" (ص239) فيكون اللجوء إلى شاهد عاين الأحداث الأخيرة، بعد تعذر العثور على الشخصية فاطمة التي كان يعول عليها لملء البياضات الناقصة.

3.2 كل هذه المعطيات تبين لنا الغرض الأساسي الذي تكمن وراءه عملية الكتابة، وأسباب استعارة "براقش" لمدينة الدار البيضاء. إنه النبش في الذاكرة القريبة لمدينة الدار البيضاء، ورصد فترة من تحولها السياسي بعد حصول المغرب على استقلاله إلى أواسط الستينيات، وما عرفته من أزمات وأحداث.

لكن هذا الغرض حين يتحقق من خلال الرواية فإن البعد التخييلي يتجلى فيه بصورة واضحة تبعا للمبدأ الذي أومأنا إليه في البداية، ومؤداه بعبارة أخرى " أريد أن أكتب رواية عن الواقع، ولكني لا أريد كتابة رواية واقعية" على غرار الروايات الواقعية". ومن هنا يحصل التداخل بين التجريبي بكل ما يزخر به من تقنيات وتفاعلات نصية يظهر لنا من خلال توظيفها أننا أمام " لاقصة "، والواقعي الذي يتحقق من خلال الرغبة في الاتصال بالواقع، وإبراز الأحداث المساهمة في تغيير مجراه، مع الميل نحو الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات.

هذا التنافر بين القصة واللاقصة هو ما يبرز لنا بوضوح من خلال ما أسميناه بـــ "الطبقات النصية""، حيث تتعدد البنيات النصية ويتصل بعضها ببعض أحيانا، وينفصل عنها أحيانا أخرى، وينفرد بعضها أحيانا بممارسة الحكي، وبعضها الآخر بتجاوزه إلى نقيضه على نحو ما سنبين.

3. الطبقات النصية

نوظف مفهوم الطبقة النصية للكشف عن البناء الروائي القائم على تعدد المستويات والتجارب التي يتناولها في غياب القصة المحكمة البناء وذات البداية والنهاية. وهو يجسد لنا بجلاء المبدأ الأساس الذي ينهض عليه السرد في أعمال المديني.

أمكننا حصر ثلاث طبقات تتكامل وتتداخل في "مدينة براقش "من جهة، كما أنها تتوالى في خطية الخطاب من جهة أخرى معطية إياه بذلك السمات التي جعلت هذه الرواية تمتح من تجربته وتتزاح عنها في الآن ذاته. هذه الطبقات الثلاث هي على التوالي : العجائبي، والواقعي، والتاريخي. نتناول كل واحدة منها على حدة، ونقف في الوقت نفسه على ما بينها من صلات.

1.3. العجائبي :

نفتح الرواية في الفصل الأول على ميلاد ميلود العجائبي. ونجد أهم المقومات العجائبية في هذا الميلاد من خلال حضور عناصر ترتبط بالثقافة الشعبية وتحضر بجلاء في الحكي الشعبي. نختزل هذه المقومات

في عنصرين اثنين.

1.1.3. الميلاد المنتظر : إن أب ميلود عندما كان في غفساي موطنه الأصلي رأى رؤيا تحدثه عن انتقالاته في الأرض، وأنه سيأتيه الولد الذكر " وإن بعد طول انتظار، ففي ذلك حكمة عليك أن ترعاها..." ص 13.

يرتبط المولود المنتظر بإنجاز مهمة في الحكي الشفاهي، وحين نفتح رواية براقش على هذا البعد العجائبي فإن ذلك سيخلق لدى القارئ أفق انتظار نوع "الحكمة" "أو المهمة التي سيضطلع بها هذا المولود. وعليه أن ينتظر تحقق ذلك.

2.1.3. لقد كان نبأ إعلان ميلاد ميلود حدثا في قصبة برشيد التي "تعاقبت عليها ثلاث سنوات عجاف" (ص 15)، لكن ميلاده هذا العام غير الجفاف إلى جدب لأن "المولود فأل حسن" (ص 16)، ولذا صار عام خير، كما أن طقس الاحتفاء بالمولود يجسد كل ذلك « سترزقين ذكرا، وسيكون له شأن عجيب « (ص 15)، هذا إضافة إلى الحلم العجيب الذي رآه سكان المدينة وجاؤوا أباه ليخبروه به. سمع الفقيه والد ميلود الأصوات تعلو "تعالوا نسأل الفقيه، فقد رأينا جميعا، وفي ليلة واحدة حلما عجيبا... وقد رأيناه في الحلم ومعه الصبي" (ص 14). كما يظهر لنا ذلك أخيرا من خلال الروايات العديدة التي يرويها الناس وهم يشاهدون المولود.

كل هذه السمات المتصلة بالميلاد العجيب لا يمكنها إلا أن تجعلنا كقراء نتوقع أشياء عديدة في النص تتصل بهذا المولود الذي يوحي إلينا بدء الحكي به بأننا بصدد "بطل موعود بإنجاز مهمة"، لكننا ما أن نتقدم في قراءة الرواية، وكلما ابتعدنا عن لحظة "الميلاد" وما صاحبها من تفاصيل وطقوس شعبية تدخلنا إلى العوالم العجائبية وجدنا أنفسنا ندخل طبقة نصية أخرى لا صلة لها بما هو عجائبي، وإن ظلت بعض مقوماته تطفو بين الفينة والأخرى.

قبل الانتقال إلى الحديث عن الطبقة النصية الثانية نود التشديد على نقطتين اثنتين نراهما أساسيتين لأنهما تتصلان بالبرنامج الحكائي في هذه الرواية لكونهما تقودانا في عملية القراءة، وتواجهاننا في عملية الوقوف على الشكل والدلالة في هذه الرواية. ترتبط هاتان النقطتان بالبعد العجائبي الذي نتحدث عنه، وتأتيان معا على شكل استباق :

أ- أولى النقطتين تتصل بأب ميلود (الفقيه)، عندما كان ما يزال يافعا وهو في غفساي يرى في الحلم شيخا معمرا أفرد أمامه صحيفة وشرع يقرأ بصوت مسموع : "آن لك أن تنهض فأمامك سفر طويل وحل وترحال" ص 13، ويخبره بأنه سيسافر من غفساي إلى فاس ويحط الرحال في الشاوية، ويواصل

"لكن الطريق عسير والروح ستحلق طويلا في غربتها"، كما أنه يخبره بما يقع لولده ميلود : "وسيهوى كثرة الترحال متنقلا من أرض لأرض كمن يبحث عن كنز فعساه يجد ما من أجله ولد" ص13.

ب- ثاني النقطتين تتصل بميلود ابن الفقيه، ورأينا جزءا منه يتم الإعلان عنه من خلال الصحيفة التي يقرأ فيها الشيخ، وجزءا آخر منه في كل الأقوال التي قيلت لحظة الاحتفال بالمولود ومجملها يتعلق باختلافه عن غيره، وأنه فأل حسن، وسيكون له شأن.

تأتي النقطتان معا على شكل استباق ذي طبيعة عجائبية، وهذا الاستباق في رأيي هو بمثابة بؤرة الرواية. إنه "يلخص" بعض ما سيأتي على صعيد الزمن، ويجعل كل ما سيأتي مفصلا على مستوى المادة الحكائية. لكن هل كل ما يقدمه هذا الاستباق العجائبي قابل للتحقيق أم أن البرنامج الحكائي سيضطلع ببعضه، ويتجاهل بعضه الآخر؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الانتقال إلى الطبقة النصية الثانية.

2.3. الواقعي :

يتم الانتقال من الطبقة النصية الأولى ذات الطبيعة العجائبية إلى الثانية ذات البعد الواقعي بتجاوز ميلاد ميلود، وما صاحبه من أحلام وطقوس وتوقعات عن طريق استعمال "الميتاسرد" حيث يتحقق التعليق من قبل الراوي الناظم على مختلف ما يتصل بالطبقة النصية الأولى. في هذا الانتقال أول ما نلاحظ هو أننا كلما ابتعدنا عن لحظة الميلاد وجدنا أنفسنا نخرج من دائرة العجائبي لندخل في نطاق ما أسميناه "الواقعي"، وكأن هذا الانتقال لا يمكنه أن يتم إلا عبر "هدم" الطبقة العجائبية، أو يقوم على أنقاضها. يبرز لنا هذا الميتاسرد بجلاء من خلال تعليق الراوي/الناظم على ما جرى سرده في الطبقة الأولى، يقول الراوي : "يستطيع ميلود أن يحكي ما يشاء، له أن يتخيل، أن يتوهم أن يضع الألعاب والألاعيب، يجعل الخيال حقيقة، لكنه ليس قادرا أن يتحكم على هواه في صنع الأحداث فهذه لسيت في ملكه " (ص 29).

إن راويا يسلب من راو منطق حكيه وطريقته، وفي هذا السلب يكمن الميتاسرد : فهو موقف من حكي سابق، وما يثيرنا في الشاهد المقدم أن الراوي/الناظم يتخذ موقفا من البعد "العجائبي" الذي يبرز لنا في سرد ميلود عن ميلاده، ويبرز اللجوء إليه من قبل ميلود لاعتبارات عديدة منها:

أ- المسافة الزمنية : حيث نجده يقول : "حتما إن السنوات التي تباعدت بينه وبين طفولته، مع ما امتلأت به من ثقوب، هي التي تدفعه إلى تعويض الواقع بالخيال ووصف ما هو طبيعي بصور مغربة" (ص29).

ب - العجز عن التفسير : إلى جانب المسافة الزمنية هناك مبرر آخر ويتمثل في العجز عن تفسير بعض الأحداث والوقائع، يقول : "... وبإمكانه أن يبرر الغرابة بالحكايات التي نسجت حول مولده، والألغاز المرافقة حين لم يجد له تفسيرا" ص.29

يأتي هذا الميتاسرد ليفسر لنا طبيعة الطبقة النصية ذات البعد العجائبي، ويكشف لنا عن وجودها في تشخيص العوالم المحكية، وقصورها عن تقديم "الواقع". إنه بأحد المعاني "ينسخ" " السرد المقدم في مطلع الرواية، ويضعنا أمام احتمال تقديم صورة أخرى مغايرة تتصل بـــ "الواقعي". وبذلك نجد أنفسنا ننتقل من حكي إلى آخر، ومن طبقة إلى طبقة نقيض. إننا ننتقل إلى الواقعي مقدما العوالم نفسها وسواها بطريقة مختلفة، ومن خلاله تعاد صياغة بعض المقاطع الحكائية من منظور سردي مختلف. ويتقدم النص تبعا لذلك في اتجاه مغاير.

بكل ذلك تضاء لنا بعض الجوانب التي رأينا في الاستباق وهي تتعلق بالمولد العجائبي، وما كان من الممكن أن يضطلع به صاحبه من مهمة حكائية أو سردية. إن اتخاذ موقف من البعد العجائبي للميلاد، نفي لكل ما شكلناه من توقعات بصدد ميلود وما يمكن أن يتولد منه، وتوجيه للسرد نحو التوقعات المشكلة حول والده "الفقيه" الذي سيصبح مركز التبئير عكس ما كان منتظرا. أو علينا انتظار نص آخر للكاتب نفسه يكتمل فيه ما بنيناه من توقعات بصدد ميلود وكثرة ترحاله في الأرض.

1.2.3. العتبة :

يقودنا الانتقال إلى الطبقة النصية الثانية إلى رؤية مغايرة لما حكي عن ميلود إبان ولادته، وما صاحبه من ألاعيب في طفولته التي تمتح من العوالم العجائبية، حيث يسعى الراوي إلى توجيه السرد نحو الواقع المزري الذي تعرفه قصبة برشيد والذي ينجم عنه قرار الفقيه بالهجرة إلى الدار البيضاء. وكأننا بهذا الانتقال نخرج من زمان إلى آخر، ومن فضاء إلى آخر مختلف.

فإذا كان عالم القرية هو عالم الطفولة وحكي المرأة للعجائب في قرية محكوم على أهاليها بالعيش في ظلام الأزمنة الغابرة (الحمق، قمع القواد والباشوات)، وكل هذا يستدعي العجائبي، فإن عالم الدار البيضاء مختلف تماما نسبيا. إنه بكلمة عالم الواقع.

لكن بين الفضاءين مسافة قصيرة هي الطريق. وفي الطريق إلى الدار البيضاء وأسرة الفقيه منحشرة بكامل أعدادها ومتاعها في حافلة عمومية يتم التوقف في منتصف الطريق أمام جدارية مكتوب عليها مجموعة من الأسماء لشخصيات "واقعية حقيقية" تنتمي إلى فضاء الدار البيضاء، وهي شخصيات سياسية وثقافية وفنية، وبينما الفقيه يتلو الأسماء المكتوبة "انفتح وسط الجدارية في شكل

باب، أسفله لصق الأرض تماما يملأ إطاره رجل متقدم في السن" (ص 45) تظهر علامات الارتباك والجزع على الجميع، إذ لم "يكن يظهر خلف الجدارية أي بناء يفهم منه أن للباب معنى، أو يكون هذا الرجل قد نبت من تحت الأرض فجأة" (ص45)، إننا هنا أمام موقف عجائبي محض (ربما هو ملاك جاء من السماء، وإلا كيف ظهر من فراغ؟) ص 46، فالجدارية فضاء جديد لم يعهده السائق من قبل، وهو الذي يقطع هذه المسافة يوميا.

يسلم عليهم الرجل ويقترب من الفقيه، ويخطب في الركاب : "...أنا قلت عندي وصية وعرفت أن الفقيه واصل اليوم... هو عارف بكلامي، عارف بقدر الغربة... سيرحل النصراني ويأتي نصراني آخر إلى أن يظهر الحق" (ص47)، ويسلم كتابا ضخما إلى الفقيه ويحدثه دون غيره بصوت خفيض، ويعطيه عنوانا، ويحدثه عن الضريح والبحر والشيخ والفتنة، ويعلمه أن في الكتاب كل شيء منذ العهد البورغواطي، ويوصيه بأن يقرأ ما في الكتاب، ويضيف إليه ما شاء وقتما شاء، ويمحو ما قرأ إن أراد، والمهم هو المحافظة على الكتاب.

في الطريق هل نقول "العتبة"؟ إلى الفضاء الجديد ننتقل مرة أخرى إلى العجائبي، فالطريقة التي تم بها تقديم الجدارية والأسماء المكتوبة عليها، واختيار الفقيه من دون الركاب لتحمل مسؤولية الاضطلاع بالمهمة، كل ذلك يؤكد لنا الرجوع إلى الطبقة النصية الأولى بما لها من صلة وطيدة مع ما رأيناه سابقا في أحلام الفقيه، وأقوال الشيخ أيام كان يافعا، لافرق بين الحلم الذي رآه الفقيه في غفساي، وما رآه في الطريق، فالشيخ هنا أيضا" يعرف أن الفقيه واصل اليوم" لذلك فهو يكلفه بالمهمة، ويحدد برنامج بناء الرواية مرتين :

أ- على صعيد القصة : " سيرحل النصراني، وسيأتي نصراني آخر إلى أن يظهر الحق".

ب- على صعيد الخطاب : يقول الشيخ "سأحضر كلما اقتضى الأمر أو استعصى السرد على السارد، وكلما أحس المؤلف بالضيق، فقد وعدته منذ شرع في الكتابة بأن أقدم له ما أقدر عليه من العون..." (ص 47) .

إن الموقف العجائبي الجديد يتصل بسابقه بسمات عديدة تشترك مجتمعة في ظهور "الشيخ" (في الحلم أو الواقع) الذي يحدد مسار الأحداث والوقائع، ويرسمها لـــ "الشخصية المركزية" (الفقيه)، وتتقدم إلينا على شكل استباق.

يظهر لنا ذلك على هذا النحو الذي نجمل من خلاله ما انتهينا إليه :

- في الطبقة الأولى : نجد الرحيل، الاستقرار في الشاوية، ميلاد الذكر حيث يتصل الاستباق بـــ

"أسرة الفقيه".

- في الطبقة الثانية : يتعدى الاستباق ما يتصل بالأسرة إلى الوطن بكامله "سيرحل نصراني وسيأتي آخر، الشيء الذي يبين أننا أمام مرحلة جديدة من توقع نمط الحياة التي سيحياها الفقيه في الدار البيضاء.

يتحقق لنا من خلال كل ذلك الانتقال من العجائبي إلى الواقعي، وننتقل من ثمة من حياة أسرة إلى المجتمع، ومن القرية إلى المدينة (على صعيد المادة الحكائية)، ومن الحكي العجيب إلى الواقعي (على صعيد الخطاب).

2.2.3. الواقع البؤرة : الدار البيضاء المدينة هي الفضاء الذي انتقل إليه الفقيه مع أسرته. هذا الفضاء شاسع جدا، لكن الفضاء الذي سيتم التركيز عليه في السرد هو الفضاء الذي ستنتقل إليه الأسرة "درب بوشنتوف" أولا فدرب الأحباس بعد ذلك.

تستقر الأسرة في الدار البيضاء، ويتغير نمط حياتها. يزاول الفقيه مهنة التعليم في مدرسة حرة. ويذهب ميلود إلى المدرسة. ومن خلال هذه الحياة الجديدة نتبين الفرق الشاسع بين الحياة في برشيد والحياة في المدينة، غير أن ما وقع في الطريق كان كافيا لتوجيه مسار حياة الأسرة في شخص الفقيه توجيها خاصا : فتسليمه الكتاب، والإذن له بزيارة الضريح يغير نمط حياته تغييرا كليا، وآية هذا التغيير على مستوى الرواية تقديم صورة عن الدار البيضاء ومن خلالها نمط الوعي المتشكل بصددها، ويمكن معاينة ذلك مما يلي :

أ- الكتاب : يصبح الكتاب جزءا أساسيا من حياة الفقيه، يطالعه في كل وقت، ويصبح جليسه الوحيد، ويدفع الفقيه إلى التساؤل والتفكير، فهو يقدم له معطيات وإفادات تاريخية عن تشكل مدينة الدار البيضاء من خلال المصادر التي أومأنا إليها، وهو يعرف العديد منها، لكنه يجد فيه ضالته، من حيث إنه يجعله يتأمل الوقائع، ويستخلص الدروس، لاسيما وأن من قدم له الكتاب أمره بأن يضيف إليه متى شاء، وقتما شاء. وفي اللقاء الذي سيرجع فيه الكتاب إلى الشيخ سيقرأ الشيخ منه، ويضيف أشياء تجعل الفقيه يتساءل لِمَ لَمْ يطلع على بعض ما جاء في الكتاب، أم أن ذلك أضيف في وقت لاحق. إن للكتاب قيمة رمزية خاصة، ما دام يرتبط بتاريخ الدار البيضاء وذاكرتها المنسية.

لكن تاريخ الدار البيضاء كما يقدمه الكتاب ليس سوى تاريخها النضالي ضد المستعمر، وفي ذلك توجيه دلالي خاص إلى تاريخها الممكن، وهو ما تسعى الرواية إلى رصده، والوقوف عليه من خلال ما سنلاحظ من خلال الطبقة النصية الثالثة.

بـــ . زيارة أبي الليوث : يفكر الفقيه في زيارة ضريح أبي الليوث استجابة للأمر بالزيارة كما طلب ذلك منه الشيخ في الطريق. ويتم استغلال هذه الزيارة فنكون أمام وصف الدار البيضاء حيا حيا، ويقدم لنا الراوي صورة المدينة في أواخر الخمسينات راصدا خروج الفقيه في الصباح الباكر من درب بوشنتوف ووصوله إلى المدينة القديمة حيث الضريح ورجوعه ليلا. كما ينتهز الراوي فرصة تواجد الفقيه في الضريح ليسرد علينا "حكاية بيضاء" وأبي الليوث الزاهد لتفسير النخلتين النابتتين في باحة الدار وسط الحطام حيث نجد أنفسنا مجددا أمام بنيات عجائبية.

إن الأمر بقراءة الكتاب وزيارة الضريح موجهان أساسيان إلى معاينة صور خاصة تتعلق بالتاريخ النضالي لمدينة الدار البيضاء، وتوجيه لمسلك الفقيه للتعرف عليها والاستئناس بها. لذلك نجده في نهاية الزيارة يستنتج ما سبق أن أكدناه : "... يا سيد الفقيه ماذا قال لك الشيخ؟ وهل حان وقت الوعد؟ لم يفهم شيئا أو فهم وصمت. وظلوا يمشون خلفه خطوة خطوة، ومن طريق لطريق إلى أن وصل إلى درب بوشنتوف، فوجد الحي كأنه في هجعة أبدية" (ص86). ويبدو لنا ذلك بصورة أوضح فيما يستنتجه الفقيه بخصوص المدينة وهو يتعرف عليها، ويتشكل وعيه السياسي بخصوصها « في مدينة بلا ذاكرة أو أضاعت ذاكرتها القديمة وهي تخوض غمار أيام جديدة لا تعرف فيها شيئا سوى أن حكاما أجانب كانوا يحكمونها قد رحلوا وعاد يحكمها من يقولون إنهم أصحاب الحق فيها وأولى بحكمها" (ص92).

هذا الوعي الذي تشكل من خلال حياته في الدار البيضاء نتاج رؤية خاصة للواقع في سيرورته الواقعية والتاريخية. وسيتجسد أكثر في نمط الحياة التي سينخرط فيها منذ قدومه إليها، حيث سنجده دائم القراءة في الكتاب (الذاكرة المكتوبة)، والاتصال بالسي المحجوب المناضل الذي يدخله إلى دائرة المناضلين الذين يسعون إلى التغيير. لذلك نتبين من خلال روايات ميلود وأمه بين الفينة والأخرى مظاهر تغير نمط حياة الفقيه : فهو في البيت منعزل، ودائم الغياب في البيت، وفي أحيان أخرى صار البيت زاوية للقاء المناضلين الذين يتحدثون عن التغيير، كما يبدو لنا ذلك أيضا في روايات إحدى الجارات بناء على ما يلاحظ في البيت من حركة دائبة، وخاصة في الليل.

هذا الانتقال من العجائبي إلى الواقعي يضعنا أمام رؤية مختلفة لحياة الأسرة. إنها منذ وصلت إلى الدار البيضاء وهي تعيش واقعا مغايرا تماما. ومن خلال هذه الأسرة (الواقعية) نكون صورة عما يجري على نطاق واسع. إننا من خلالها نطل على "الواقع" المغربي في فجر الاستقلال وما يمر به من تغيرات، وما تتجسد فيه من رؤيات تنم عن السخط على الواقع، وتعبر عن الرغبة في التغيير، وسيكون

هذا إيذانا بالانتقال إلى الطبقة النصية الثالثة حيث يتم تجاوز حياة الأسرة، (أسرة الفقيه) إلى الواقع المغربي منذ انعقاد مؤتمر الجمعية المهدية.

3.3. التاريخي:

1.3.3. في الفصل الأول من الرواية وجدنا أنفسنا أمام الطبقة النصية الأولى ذات البعد العجائبي الذي تم فيه التركيز على ميلاد ميلود في أسرة الفقيه في برشيد. وفي الفصل الثاني سافر بنا الراوي إلى الدار البيضاء لنعايش تحول حياة الأسرة وهي تعيش في أتون المدينة الساخن من خلال الطبقة النصية الثانية ذات الملمح الواقعي. وفي الفصل الثالث وهو يحتل وسط الرواية على اعتبار أنها تتكون من خمسة فصول. نجد أنفسنا ننتقل إلى الطبقة النصية الثالثة ذات البعد التاريخي.

ليس التاريخ في التجسيد الروائي الذي نحلل في ضوئه هذه الرواية سوى الواقعي وقد انتقل من حياة الأسرة إلى حياة المجتمع وصار ما يبرز عبره يتحقق من خلال مرحلة زمانية في تاريخ المجتمع برمته. تقع في هذه المرحلة الزمانية مجموعة أحداث ووقائع قامت بها شخصيات الرواية لتتجسد من خلال حدث مركزي هو "انعقاد المؤتمر التأسيسي للجمعية المهدية " في سينما العهد الجديد. وهذا الحدث يقدمه لنا الراوي على لسان ميلود الطفل وبطريقته الخاصة ليجعلنا فعلا نحس أننا أمام حدث غير عادي : "حتى كان ذلك اليوم... أتذكر جيدا أنه يوم الأحد، هو يوم عطلة مدرسية، ولذلك لا ينسى مثل أيام الأعياد... هذا الأحد ظهر لي مختلفا، فقد جاءت أمي توقظني باكرا وتقول إنه ينتظرني لأرافقه،،،" (ص106).

2.3.3. هذا اليوم هو يوم التجمع الذي يشهد انعقاد المؤتمر التأسيسي للجمعية المهدية، وبعد نقل تفاصيل هذا التجمع التأسيسي تقدم لنا مجموعة روايات يتم تناقلها عما جرى بعد هذا الحدث من وقائع ومشاهدات. وكل ذلك يؤكد لنا الطابع التاريخي لهذا الحدث الذي يكرس له الفصل الثالث بكامله (من الصفحة 91 إلى الصفحة 143). إن الحدث يحتل حيزا مهما في الرواية إذ له ما يمهد له، وله ما يليه، على اعتبار أنه كحدث مركزي تظل آثاره متواصلة ومستمرة . ومما يدعم ما نذهب إليه، نجد الرواية تكاد تكون خلوا من المؤشرات الزمانية والتاريخية المتصلة بالواقع المغربي الحديث، باستثناء الحوادث التي عرفتها منطقة الشاوية إبان احتلال الدار البيضاء (1905-1907م-1325ه) والتي يقوم الروائي بنقل وقائعها من مصادر تاريخية، أو الإشارات إلى 61 و 63 (ص 122) أو بصدد المطاردة الكبرى في الدار البضاء (15 أكتوبر1965). لكن المرة الوحيدة التي جاء فيها المؤشر الزماني كاملا هو ما

يسجل في الصفحة 93، من خلال التاريخ الذي كتبه الفقيه على سبورة القسم عندما دخل إلى الفصل ليقوم بواجبه التربوي : " أمسك طبشورة وكتب على اللوح تاريخ اليوم : 15 أكتوبر 1959 ومادة الدرس : النحو".

3.3.3. لا يمكن للمحلل إلا أن يتساءل عن أسباب التشديد على هذا المؤشر الزماني في الوقت الذي نجد فيه الرواية لا تحتفي بطريقة خاصة بالمؤشرات الزمانية؟ نفهم الجواب مباشرة، فقبيل انتهاء الدرس يأتي السي المحجوب وهو المؤطر السياسي للفقيه ليحدثه عما يعتمل في البلاد، ويخبره عن الاجتماع بالشيخ، وبعد ذلك بصفحات قليلة يقع الحدث المركزي : انعقاد المؤتمر التأسيسي للحزب.

إن تسجيل هذا المؤشر الزماني واضح الدلالة على الوقائع التي ستجري والتي تحمل بعدا تاريخيا في المغرب الحديث. وهذا المؤشر لا يختلف عن سنة 1907 ذات الدلالة الكبرى لتاريخ الشاوية والدار البيضاء بصورة خاصة، وتاريخ المغرب بكيفية عامة. وحين لا يشدد الروائي على إشاراته التاريخية، ويبرزها لنا بوضوح، فإنه بذلك يريد أن يجعلنا بعداء عن التعامل مع روايته باعتبارها "واقعية" تماما كما حاولنا تبيين ذلك في مطلع هذه القراءة. إنه يرمي فعلا إلى النبش في الذاكرة الفردية والجماعية عما وقع في "براقش"، ما دام هناك من يرفض أو يتناسى هذا التاريخ القريب لأسباب ودواعي شتى، ومن ثمة يسعى إلى تحقيق هذا الفعل بطريقة روائية، وتخييلية، لا تصادر التاريخ أو تدعي التعبير عن "الحقيقة" التاريخية.

4.3.3. تأخذ الطبقة النصية الثالثة بعدا خاصا في بناء الرواية لأنها وهي تشدد على حقبة تاريخية في تاريخ المغرب الحديث تريد أن تبين دور الدار البيضاء في هذا التاريخ، لذلك كان تأسيس الحزب الجديد (الجمعية المهدية) في سينما "العهد الجديد" إيذانا بتحول كبير تشهده مدينة براقش.

لاحظنا أن كل طبقة نصية تأتي متصلة بغيرها إما بواسطة الميتاسرد أو التضمين. فالانتقال من العجائبي إلى الواقعي جاء عن طريق التعليق النقدي الذي يعيد النظر في السرد العجائبي محاولا إعطاءه تفسيرا مغايرا، وهو بذلك يمهد للدخول في الطبقة النصية الثانية الواقعية. كما أن الانتقال إلى التاريخ جاء عن طريق الانتقال إلى المجتمع الذي تنخرط فيه الشخصية المحورية التي تم التركيز عليها في الطبقة الثانية. وسنجد الأمر نفسه في القسم الأخير من الرواية الممتد على الفصلين الرابع والخامس حيث يتحقق الرجوع إلى الواقعي.

4.3. الواقعي - السياسي :

1.4.3. إذا كان الواقعي الذي رأيناه في الطبقة الثانية يتركز على أسرة الفقيه، ويبين لنا التحولات التي طرأت عليها نتيجة انضمام الفقيه إلى الحركة التي تسعى إلى تغيير الواقع، فإن الواقعي الذي يتلو التاريخ مشخصا في الحدث المركزي (المؤتمر) يأخذ وجهة أخرى من خلال احتدام الصراع بين طرفي الواقع السياسي (الحركة المناهضة التي تجد لها جذورا في انتفاضة الدار البيضاء، والحكام الجدد الذين يرون أنفسهم أولى بالحكم كما تقول الرواية). وبما أن الواقعي هنا يستمد مقوماته من التاريخ فإنه سيتجسد من خلال البعد السياسي. وسنجد أنفسنا تبعا لذلك أمام اكتمال البرنامج الحكائي حيث يذهب هنا نحو نهايته بناء على ما سبق لنا أن رأيناه من استباقات في البنية النصية العجائبية المتصلة بالمولد أو بالعتبة (الطريق إلى الدار البيضاء).

بعد انعقاد المؤتمر التأسيسي انتقلت الحركة إلى الفعل السياسي، وستظهر آثاره واضحة في اختفاءات الفقيه، ومطاردات المناضلين، ووصف تفاصيل المعتقلات السرية. بل إننا منذ بداية الفصل الرابع نجد أنفسنا أمام البحث عن الزعيم، وقامت القيامة بسببه. وستتواصل الإجراءات القمعية ضد الحركة بكاملها مما أشاع مناخا من التوتر والقلق، ويستمر هذا الوضع حتى نهاية الرواية مع تشخيص دقيق لاضطرابات مارس 65 وما عرفته الدار البيضاء من صور ومشاهد دموية وعنيفة.

في هذا التنويع الواقعي تتجلى لنا المدينة "مدينة براقش" في أكمل صورها. إنها مدينة التناقضات الصارخة، التي تجني على فلذات أكبادها بالمطاردات والملاحقات، ويجسد لنا المقطع التالي الصورة بشكل واضح : "عند المدخل الشمالي للملعب قطعة معدنية مستديرة وكتب فوقها بحروف حمراء بارزة : قف. القوة البراقشية. لم أفهم شيئا وخطرت ببالي فكرة حمقاء : الاستعمار رحل منذ سنوات، فهل هؤلاء رجال استعمار جديد؟" (ص245).

يتحقق بهذا الشاهد الاستباق الذي رأيناه في العتبة عندما كانت الأسرة في الحافلة متوجهة إلى الدار البيضاء، حيث عبر الشيخ بعبارة واضحة عن الفكرة نفسها، وعملت الرواية من خلال طبقاتها النصية المختلفة على تعميقها وتأكيدها. فلا شيء تغير.

أ- على الصعيد التاريخي بين انتفاضة الدار البيضاء سنة 1907، وانتفاضتها سنة 1965 الشيء الوحيد الذي عرف التغيير هو وجه الاستغلال. فإذا كان في مطلع القرن العشرين ممثلا في الاستعمار فإنه في أواسطه يتجسد من خلال حكام الاستقلال. كما أنه :

ب- على الصعيد الواقعي : لا يوجد فرق بين البادية بباشواتها وقوادها الذين يجلدون الناس، ويحبسونهم كرها، وبين المعتقلات السرية في المدينة، ومطاردات المناضلين. كما أنه لا فرق بين أشكال

حياة الناس. أما على :

ت- على الصعيد العجائبي : فإنه وحده الذي لم يتغير، إنه بما يضم من أنماط للتفكير غير قابلة للتفسير بطريقة معقولة، ويظل الغموض يكتنفها، وسلطة عليا توجه الحياة وفق وجهات غير مضبوطة وغير منطقية (الميلاد العجيب/ العتبة/ اللقاء العجيب بين بيضاء وأبي الليوث/ البحث عن الكتر المرصود...). إنه يظل متعاليا، ويتم اللجوء إليه بين الفينة والأخرى لتجسيد بعض مظاهر اللامعقول الذي يطبع مجتمع الرواية.

هذه الطبقات الثلاث حين ننظر إليها في سياق تطور بناء الرواية تكشف لنا عن الخلاصات التالية التي نستنتج من خلالها أهم خصائص "مدينة براقش" على مستويي الشكل والدلالة على النحو التالي :

.4 تركيب :

.1.4 يبين لنا المبدأ العام الذي يحكم الرواية أن الطبقات النصية هي المفتاح الأساس لتجسيده، فالروائي يريد أن ينبش الذاكرة الثقافية والاجتماعية لمدينة الدار البيضاء في فجر الاستقلال، ويقدم لنا صورا عن أشكال وأنماط الحياة فيها. يستدعي هذا النبش توظيف المادة الحكائية من خلال التأريخ لعائلة وتحولها في الزمان، وعبر ذلك يتم التأريخ للفضاء العام الذي تعيش فيه كما هو جار عادة في الكتابات الروائية (تجربة محفوظ، مبارك ربيع مثال على ذلك). لكن المديني يتبع أسلوبا مختلفا وشكلا مباينا فهو ينتقل من طبقة نصية إلى أخرى، من الشذرات التاريخية إلى وصف المدينة، إلى رسم تحول أسرة، إلى تاريخ القمع...

.2.4 هذا الأسلوب يضعنا أمام إمكانية حكي "لاقصة"، إذ أن هناك "قصة" اة أكما نلمس ذلك في الفصلين الأول والثاني، لكن الفصل الثالث يدخلنا إلى زاوية من حياة الفقيه تجعله في تماس مع الواقع السياسي، فيكون بذلك الانحراف عن مجرى القصة، التي لا يبقى منها غير شخصيات تكونت لدينا صور عنها، وأحداث تتصل بالمجتمع المديني الذي انتقلت إليه الأسرة. ويظهر لنا من ثمة بوضوح المبدأ الذي أشرنا إليه، وجعلناه قطب قراءتنا باعتماد الطبقات النصية.

.3.4 هذا الازدواج بين الحكي واللاحكي يفتح أمام الرواية إمكانية تشغيل مختلف التقنيات التي تم توظيفها في "الرواية"، وعند المديني مهارة في ذلك، يبدو لنا ذلك في تعدد الخطابات وتنوعها وتداخل بعضها ببعض، وفي ممارسة الميتاحكي الذي يتخذ موقفا واعيا من أشكال الحكي الممارس في لحظات

حكائية سابقة، والمونولوج، ومختلف الصيغ الممكنة بحرية وتلقائية لضمان انسجام النص الروائي في غياب "القصة"، و"يكون ما يحدد هذا الانسجام كامنا في موضوع"" الرواية، وما يستقطب اهتمام الروائي بالدرجة الأولى، والذي يتوارى بين الفينة والأخرى وراء اللعب السردي واللغوي.

4.4. إن توظيف كل هذه التقنيات وما يتصل بها من تكسير لوتيرة الزمن والسرد لما جاء متوازيا ومتحققا من خلال الطبقات النصية الثلاث أعطى تحولا لكتابة المديني التجريبية، وجعل إمكانية القراءة الموجهة نحو بناء خاص ودلالة محتملة ممكنة وواردة حتى بالنسبة للقارئ غير المتعود على هذا الضرب من النصوص.

5.4. "مدينة براقش" مسعى جديد للاتصال بالفضاء المغربي في الرواية المغربية ودون هذا الاتصال الشيء الكثير الذي على الرواية المغربية القيام به، ورغبة أكيدة لصياغة تجربة روائية وتخييلية عن الدار البيضاء باعتبارها ذاكرة الوطن ككل، ومجالا خاصا بمقوماته وخصوصياته. فهل انتهت هذه الصياغة إلى المرمى أم أن في جعبة الروائي أشياء أخرى عن "براقش" الأخرى كما يحلم بها "الحلاق " ويتمنى أن يكون كاتبا ليحكي عنها، لمعانقة الواقعي والتجريبي بصورة أخرى، ووجه يصب في مجرى تثبيت التجربة المدينية في الرواية المغربية.

1- أحمد المديني، مدينة براقش، منشورات الرابطة، الدار البيضاء ، 1998

2- محمد صوف ، كازابلانكا، مطبعة خليل، الدار البيضاء 1989